

الغزو المغولي في كتابات المؤرخين المسلمين - كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير أنموذجاً -

أ- خالد كريببي
المركز الجامعي سي الحواس
- بركة - باتنة

الملخص:

يعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين الذين عاصروا الغزو المغولي، وتناولوا حوادثه بنظرة فاحصة وأحسوا بالآلام المسلمين في هذه الأثناء، ورغم أن المعلومات التي قدمها ابن الأثير عن الغزو المغولي تغطي بداياته الأولى فقط إلا أنها تتميز بأهميتها البالغة، فقد عاصر الرجل الحوادث وكان قريباً منها ورأى بعينه وسمع بأذنه، وليس من رأى كمن سمع عن المد المغولي نحو بلاد المسلمين والكثير من الحوادث المأساوية التي تعرض لها المسلمون بسببه وتآلم كثيراً لها، وبحث في أسباب هذا الغزو، واعتبره مصيبة لم يعرف العالم مثلها من قبل، وقال عنه كلمة غريبة مؤلمة حين ظن أن هذه هي بداية النهاية، وأن الأرض ستنتهي وأمة الإسلام لن تبقى بعد هذه الحوادث.

Abstract:

Ibn al-Atheer is one of the most prominent historians who witnessed the Mongol invasion and dealt with its incidents with a close look and felt the pain of Muslims in the meantime.

Although, what Ibn al-Atheer illustrated about the Mongol's invasion covered only the beginning of that period, it was very important because the contemporary man was a witness and was close to it ;he saw and heard as no one did before about the Mongol spread towards Muslim countries and many tragic incidents suffered by the Muslims. He also discussed the reasons for this invasion, he described it in a strange and painful word when he thought that this is the beginning of the end, and that the land will end and the Nation of Islam will not survive after these events.

تمهيد:

يعتبر الغزو المغولي لبلاد المسلمين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي من أهم الحوادث التاريخية التي شهدتها العالم وأخطرها، فقد شرعوا في السيطرة على معظم البلاد الإسلامية، وأزالوا الخلافة الإسلامية بعد احتلالهم لبغداد سنة 656هـ/ 1258م. ونتيجة لما أحدثه هذا الغزو وقاد إليه فيما بعد فقد درس المؤرخون المسلمون هذا الغزو، وتناولوا أحداثه المروعة، كما وصفوا ظروف العالم الإسلامي وأوضاعه وقتذاك ووحشية المغول وصفات جيشهم وغير ذلك من الأمور ذات الصلة.

وقد تباينت تلك الدراسات التي تناولت ذلك الغزو من مؤرخ لآخر لأسباب عديدة لعل في مقدمتها اختلاف توجهات المؤرخين الدينية وانتماءاتهم الطائفية، ثم الابتعاد عن المنهج العلمي والموضوعية حيث أسهب بعضهم في ذكر تفاصيل الأحداث في حين اختصر البعض الآخر عند ذكر أحداثها.

ويعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين الذين تناولوا حادثة استيلاء المغول على المشرق الإسلامي بشكل كامل وحقق أسبابها، وفي بداية كلامه عن المغول أو التتر كان يقول: "... لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك. فيا ليت أُمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ..."¹.

ورغم أن حوادث الغزو المغولي بدأت مع تجاوز ابن الأثير الستين، إلا أنه أظهر جلدًا كبيرًا في تتبع حوادثها، عن طريق التجار والفقهاء الذين نزحوا من البلاد التي طالتها أيدي المغول، حتى نهاية تاريخه في 628هـ/1230م، وقدم وصفاً حياً لذلك الغزو المدمر لأنه كان معاصراً لهذا الغزو ضد البلاد الإسلامية.

وقد أثار ابن الأثير نقاطاً خطيرة عند تناوله أسباب هذا الغزو فهو يتهم ويحمل المسؤولية لكل من السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي² الذي عجز في وقف تقدم المغول ليس لقلة قوته بل لقبح سيرته وسوء تدبيره لملكه حيث لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، وأنه ملئ خوفاً ورعباً من التتار.

أما الخليفة العباسي الناصر لدين الله³ فهو يتهمه بمكاتبة المغول وتحريضهم ضد الدولة الخوارزمية⁴، وهو الوحيد الذي أشار إلى هذه التهمة دون غيره رغم وجود البعض ممن عاصر هذا الغزو، وفي مقدمتهم النسوي الذي أرخ للسلطان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي، وهو من المصادر المعاصرة للخليفة الناصر لدين الله، ومؤرخ المغول رشيد فضل الله (ت 718هـ/1320م)، والذي كان بإمكانه أن يذكر مكاتبة الخليفة الناصر لدين الله للمغول ويتخذ ذلك ذريعة لغزو المغول للبلاد الإسلامية. وهو ما جعل الكثير من المؤرخين يردد هذه التهم دون تمحيص وخاصة ما تعلق بالخليفة الناصر لدين الله.

1- سيرة ابن الأثير:

أ- المولد والنشأة:

ولد أبو الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري الملقب عز الدين بجزيرة ابن عمر أو الجزيرة العمرية في ربيع جمادى الأولى سنة 555هـ/1160م. وقد جاء لقبه بالجزري نسبة إلى هذه الجزيرة، وأما ابن الأثير فهو نسب يعود إلى والده، الذي كان أثيراً عند الأتابك قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب

الموصل (ت 565هـ / 1170م) وشقيق الأتابك نور الدين محمود صاحب الشام وحلب (ت 569هـ / 1174م)، وهذه الأثرية عنده جعلته يتبوأ مناصب عالية في مملكته أبرزها عاملاً على جزيرة ابن عمر ومتولي ديوان الخراج فيها.

ب- ثقافة ابن الأثير:

بدأ عز الدين ابن الأثير طفولته كغيره من الأطفال والصبيان في عصره الجلوس إلى مقاعد الدراسة في كتاتيب جزيرة ابن عمر ومدارسها؛ لأخذ مبادئ القراءة والكتابة والعلوم الأخرى من حديث، وفقه، وقرائات، وفرائض، ومنطق، وحساب، وهيئة، ونجوم، وآداب، وتاريخ، وأنساب، ولعل هذه العلوم في مجموعها حصيلة العلوم في ذلك الزمان.

ولم تكن الموصل هي المكان الوحيد الذي كوّن فيه ميوله الثقافية، بل ارتحل إلى دمشق وحلب ومكة والقدس لطلب العلم: "...كان كثير التنقل بين الموصل وبغداد ودمشق وحلب، وأنه كان يتلقى في كل بلد نزله العلم والحديث عن علمائه وقرائه وفقهائه ومحدثيه ونحاته، فحصلت له بذلك ثقافة شاملة في العلوم الإسلامية والتاريخ والنحو..."⁵. وقد درس على عدد من الشيوخ الذين كان لهم الفضل في تكوين شخصيته الفكرية.

ج- مكانته العلمية ووفاته:

لقد احتل ابن الأثير مكانة علمية كبيرة، وأشاد به من جاء بعده من المؤرخين، وشهد معاصروه من كبار المؤرخين والمؤلفين بالجوانب المتعددة التي احتوتها معرفته، فقد قال عنه ابن خلكان: "...إنه كان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم..."⁶.

وصفه ابن كثير "الإمام العلامة"⁷، وقال عنه الذهبي: "كان صدراً معظماً كثير الفضائل"⁸، كما قال عنه ابن العماد الحنبلي: "...إنه كان إماماً، نسابة، مؤرخاً، إخبارياً، أدبياً، نبيلاً، محتشماً..."⁹.

ويتضح أن ثقافة ابن الأثير كانت في اتجاهين متآلفين، الحديث والتاريخ، على أن ثمار هذه الثقافة كانت أينع في المجال التاريخي منها في مجال الحديث. ويستدل على ذلك من الآثار التي تركها في الحقل التاريخي¹⁰.

أما بالنسبة لوفاة عز الدين ابن الأثير -رحمه الله- فكانت في شعبان سنة 630هـ/1232م بالموصل¹¹.

2- مصادر ابن الأثير في كتابة أحداث هذا الغزو وأسلوبه:

عندما شرع المغول في غزو العالم الإسلامي كان المؤرخ ابن الأثير في الموصل بعيدا عن المواقع التي دارت فيها الأعمال التخريبية للمغول مما يبين أن المصادر التي استقى منها معلومات هذا الحدث كانت في مجملها شهود عيان أو تجارا أو أخبارا كانت تتردد هنا وهناك أو عن طريق أقوام فارين من أيدي المغول.

فمن رواياته عن الغزو المغولي أن تاجرا من أهل الري¹² كان قد استسلم للمغول، ودخل في طاعتهم وذهب معهم إلى تبريز أثناء غزوهم لها. فكتب هذا التاجر خطبا إلى أحد أصدقائه بالموصل حيث كان يعيش ابن الأثير. وقد ذكر هذا التاجر في خطابه أن حملات المغول قد شملت جميع بلاد المسلمين.

ويذكر عند حديثه عن الحرب بين المغول وخوارزم شاه أنه نقل معلوماته من الفقهاء "...وهكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارى¹³، وأسروه معهم إلى سمرقند¹⁴، ثم نجا منهم ووصل إلينا، وذكر غيره من التجار أن خوارزم شاه سار حتى وصل إلى الري¹⁵..".

وعند الحديث عما فعله المغول في مدينة مراغة¹⁶ بأذربيجان¹⁷ يذكر: "...بلغني أن امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنونها رجلا.."، وقال أيضا: "...وسمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل، فمزال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم، ولم يمد أحد يده إليه بسوء..."¹⁸، وأثناء مسير المغول نحو أربل¹⁹ قال: "...ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا حتى إن بعض الناس همَّ بالجلأ خوفا من

السيف.. ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل، وإلى مظفر الدين²⁰ يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا²¹ ليمنعوا التتر...²².

وعند احتلال المغول لنصيبين²³ اعتمد ابن الأثير على أحد سكانها في أخذ المعلومات ، حيث قال: "حكي لي بعض التجار..."، "وحكى إنسان من أهلها..."، وفي موضع آخر يقول: "و حكي لي عن رجل منهم أنه قال..."²⁴.

ويتبين لنا مما تقدم أن أغلب ما كتبه ابن الأثير عن المغول يستند في أساسه على جمع الروايات، والأخبار التي كانت تصله من مختلف المناطق التي غزتها جحافل المغول وهو بذلك يقوم بتوثيق مادته العلمية بعد نقدها وتمحيصها، فتراه تارة يفضل رواية فقيه على رواية تاجر، وفي موضع آخر يقدم رواية شاهد عيان عن غيرها من الروايات التي سمعها من جهات أخرى.

ومما يدل على أن ابن الأثير كان متحكما في سرد أحداث الغزو المغولي إلمامه بتفاصيل كثيرة عنه حيث يصف أعمالهم التدميرية حيثما حلوا من بداية غزوهم للعالم الإسلام سنة 617هـ / 1219م إلى غاية سنة 628هـ / 1230م حيث توقف في تدوين كتابه الكامل.

ومن وصف ابن الأثير لأعمالهم التدميرية، أنه أشار إلى ما فعله هؤلاء في المدن التي دخلوها، ففي مدينة خوارزم²⁵ قتلوا كل من فيها ونهبوا كل مافيها، ثم إنهم فتحوا السد الذي يمنع ماء النهر عن البلد فغرق البلد وتهدمت الأبنية. ثم يذكر ما قام به المغول في همدان²⁶ فيقول: "وقوي التتر على المسلمين فأفنؤهم قتلا ولم يسلم إلا من كان عمل له نفقا يختفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدة أيام، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه، ورحلوا عنها..."²⁷.

ورغم توازن ابن الأثير في سرد الحوادث التاريخية في كتابه الكامل إلا أن أخبار المغول مقارنة مع أخبار أخرى تميزت بقلّة التفاصيل لنقص الوثائق و قلّة الروايات، فقد بذل جهدا كبيرا في التقصي العميق والشامل لظاهرة تداعي المغول على العالم الإسلامي من الشرق .

ومما زاد من قيمة منهج ابن الأثير انتقاده للسياسة والحرب في كتابته عن الفترات المتأخرة والتي عاصر أحداثها ومنها الاكتساح المغولي المقيت للبلاد الإسلامية.

أما أسلوب ابن الأثير في وصف حوادث هذا الغزو فقد اتبع أسلوباً ينم عن فهم للتاريخ وحوادثه فهو يؤكد أن الحادثة لم يشهد العالم مثلها منذ أن خلق الله الكون " فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه و تعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ومايدانيها...".

كما اعتمد ابن الأثير على الشمولية والوصف الدقيق للاحداث التاريخية المرتبطة بهذا الغزو رغم قلة مصادره عنها من خلال تتبع أخبار التتر ومافعلوه ببلاد الإسلام وأخبارهم في البلاد الأخرى مثل بلاد الروم و قفجاق²⁸ فيذكر " وعبروا عندها الى بلاد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلا ونهباً وتخريباً ، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم.." ²⁹.

ويبدو من كتابات ابن الأثير عن الغزو المغولي أنه استشرف ما سيحدثه هذا الغزو لاحقا بالمسلمين وبلاد الإسلام منذ بدايته مؤكدا أن هذه الحادثة موجهة لضرب المسلمين بوجه خاص، إلا أن تداعياتها وأضرارها ستمس الجميع حيث قال أنها: " المصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين.." ³⁰، وقد تحقق ذلك فعلا حيث دمرت الخلافة الإسلامية ووصل الغزو إلى مناطق أخرى من العالم.

3- موقف ابن الأثير من الخليفة الناصر لدين الله والسلطان

جلال الدين منكبرتي:

أ- من الخليفة الناصر لدين الله:

وقف المؤرخ ابن الأثير موقف سلبي من الخليفة الناصر لدين الله، ووجه له تهمة كثيرة لعل أخطرها أنه هو من أطعم المغول في بلاد الإسلام. ويقول ابن الأثير: " وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطعم التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم..."³¹.

وقد ألمح إلى ذلك ابن الأثير في حوادث سنة 617هـ/1219م فعند حديثه عن خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر قال: "وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر.

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ
فكان يخشى من تدوينه في بطون الدفاتر كما أن في قوله: "فكان ما كان مما لست أذكره" تأييدا لهذه الشائعة و ترجيحاً لصدقها وإن لم يبينها. والكناية أبلغ من التصريح في هذا المقام.

وانقسم المؤرخون الذين جاؤوا بعد ابن الأثير وأخذوا عنه فمنهم من أيد تلك التهمة ومنهم من رفضها ونزه الخليفة الناصر لدين عنها. ففي مرآة الزمان قال سبط الجوزي قال لي المعظم³²: "كتب إلي جلال الدين بن خوارزم شاه يقول: "تجيء أنت واتفق معي حتى نقصد الخليفة الناصر فإنه كان السبب في هلاك أبي، وفي مجيء التتار وجدنا كتبه إلى الخطأ³³ وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيول. فكتبت إليه: "أنا معك إلا على الخليفة، فإنه إمام الإسلام"³⁴.

ونقل أبو الفدا الرواية كما هي عن ابن الأثير: "وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطعمهم في البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق..."³⁵، وذكر ابن كثير هذا الأمر عندما تكلم عن حوادث 622هـ/1225م: "عندما عزم جلال الدين على

قصد الخليفة ببغداد؛ لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك، واستولت التتر على البلاد ...³⁶.

وقد أكد المقرئ في هذه التهمة فقال: "وفي خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همدان؛ وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد، خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه، لما هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه، كما كانت السلجوقية .."³⁷.

وبالجملية فقد حمل عدد من المؤرخين القدامى وحتى المحدثين³⁸ الخليفة العباسي الناصر مسؤولية اجتياح المغول لبلاد المسلمين حينما حرضهم على غزو الأراضي الخوارزمية، ورأى فيهم القوة القادرة على رد السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد - خصمه - إلى صوابه.

في حين أن مصادر أخرى معاصرة وقريبة من الحدث وكثيرة لم ترد هذه التهمة أمثال ابن الديبشي وابن النجار وأبو شامة وسبط ابن الجوزي وابن الساعي، بل إن مؤرخ الدولة الخوارزمية النسوي المعاصر للغزو المغولي لم يورد هذه التهمة في مؤلفه "سيرة جلال الدين منكبرتي" كما سبق الإشارة إليه. وهو موقف أكده المؤرخ العراقي المعاصر محمد الصالح قزاز في كتابه "الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية" حيث يرفض الدكتور القزاز ما نسب إلى الخليفة الناصر، لكنه يواجهه بتقصير الخليفة وعدم تقديره لمسؤوليته كخليفة للمسلمين³⁹.

والواقع أن المغول لم يكونوا بحاجة إلى تحريض سواء من الخليفة أو من غيره لأنهم كانوا قد شرعوا في توسيع هجماتهم جهة الغرب حتى أصبحت ممتلكاتهم مجاورة للدولة الخوارزمية فطبعي أن تتجه أطماعهم إلى دولتهم منتظرين الفرصة السانحة التي تحققت لهم بعد مقتل تجارهم في أترار⁴⁰.

ومما يضعف رواية ابن الأثير في اتهامه للخليفة الناصر لدين الله بمكاتبة المغول أيضا هو موقفه الصريح والمعادي لهم، فعندما وصلت الأخبار إلى بغداد في سنة 618هـ/1221م بتقدم المغول من قاعدتهم بمراغة نحو أربل، كتب الخليفة إلى صاحب الموصل وصاحب أربل يأمرهما بالاجتماع مع جيوشه، فلما علم عسكر المغول بذلك انسحب.

كما لا يعقل أن يتفق خليفة المسلمين مع المغول الوثنيين، وأن يسارع هؤلاء إلى تلبية طلبه دون أن يكون لهم أسباب ومقاصد أخرى. وعلى الأقل يقتضي الاتفاق في استراتيجية الخليفة أن يحفظ دولته التي بات يهددها الخطر المغولي وهو مالم يحدث.

وقد يكون حتى ابن الأثير نفسه لم يعرف حقيقة ما كان يحدث في ذلك الوقت في داخل الأراضي المغولية ولا عن طموحات جنكيز خان التي لم تكن تعرف حدودا حيث كان يسعى لإخضاع العالم، والتهمة جاءت على لسان الخوارزميين ثم نقلها هو عنهم⁴¹.

وأكيد أن الصراع بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية قد بدد قوة الطرفين، وأصبح بالتالي الطريق مفتوحا للسيطرة على أراضي الخلافة العباسية.

ب- السلطان جلال الدين منكبرتي:

يعد المؤرخ ابن الأثير من أكثر المؤرخين الذين تحاملوا على السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي، لأنه في رأيه أقدم على ارتكاب أعمال شنيعة في بلاد إسلامية، ومع شعوب مسلمة حيث كانت جيوشه تقدم في الكثير من المناسبات على تخريب المدن المفتوحة ونهبها، كما أن موقفه من الدولة العباسية ظل كموقف جده وأبيه في معاداتها، في وقت كان الأجدر به مواجهة القوات المغولية التي اشتدت غاراتها على العالم الإسلامي، وعزم على قصد بغداد لأن الخليفة الناصر لدين الله لم يجبه بإقامة الخطبة، ووصلت قواته إلى دقوقا وأخضعها بالقوة ثم أطلق يد جيوشه ليعيثوا فيها قتلا وفسادا.

ويبدو أن الصدمة التي سببها الغزو المغولي لابن الأثير وما حل بالإسلام والمسلمين وتقدير أولي الأمر في التصدي لهذا الغزو هي التي جعلته يوجه سهامه إليهم، فهؤلاء المغول إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم وجود المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً⁴². أما جلال الدين الذي كانت إمكانياته العسكرية كبيرة وتسمح له بالوقوف في وجه جنكيز خان، غير أن ذلك لم يتم على حد قول ابن الأثير.

في حين تؤكد مصادر أخرى غير ذلك ومنها النسوي على أن جلال كان بطلاً ووقف سداً منيعاً في وجه المغول وأنه لولاه لداسوا الديار، وأن أباه نقل إليه ولاية العهد بدل ابنه الأصغر بعدما تبين له أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يجالذ المغول، وقد وصفه قائلاً: "كان أسداً ضرغاماً، أشجع فرسانه إقداماً، وكان حليماً لا غضوباً ولا شتاماً، وقوراً لا يضحك إلا تبسماً، ولا يكثر كلاماً، و كان يحب العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب..⁴³".

وأما ابن تغري بردي فيقول عنه نقلاً عن الأشرف موسى⁴⁴: "كان الخوارزمي يقاتل التتار عشرة أيام بلياليها بعساكره، يترجلون عن خيولهم، ويلتقون بالسيوف، ويبقى الرجل منهم يأكل، وهو يترجل...⁴⁵". وحتى أعداؤه من المغول اعترفوا بشجاعته فهذا جنكيز خان يقر بعد عودته من حرب نهر السند وعبور جلال الدين ويصرح: "أن أولاده من بعده سيفتحون المدن" وطلب من جنوده أن يتم القبض عليه حياً لكي يشاهد ويتعرف إلى هذا القائد العسكري المحنك الذي انتصر على قواته.

ولقد كان واضحاً من كلام جنكيز خان أنه بذهاب الخوارزمشاه من إيران إلى الهند وتفرق جنده وأسر رعيته أنه لم يعد من خطر على المغول في ممالكهم المفتوحة وحكم أولاده. فالحقيقة هي أن جنكيز خان كان يعد جلال الدين هو الوحيد من بين أبناء السلطان محمد الذي يخشى منه كضارب لوجودهم وماح لفتوحاتهم⁴⁶.

ولذلك لما قتل جلال الدين دخل جماعة على الأشرف موسى فهنؤوه بموته؛ فقال: "تهنؤوني به وتفرحون! سوف ترون غيبة! والله لتكونن هذه الكسرة لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج"⁴⁷.

وفعلا بعد أن تخلص المغول من أخطر عدو استطاع أن يواجههم في بسالة منقطعة النظير، أصبح الطريق أمامهم في اكتساح العالم الإسلامي دون أن يعوقهم عائق أو تقف في سبيلهم عقبة؛ فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية، وينشروا الخراب والدمار⁴⁸.

ورغم هذه الأوصاف التي تنصفه إلا أن الكثير من الأعمال تدينه وتغطي على بسالته منها كثرة خصوماته، فقد تعادى مع الخلافة في بغداد وملوك الشام وحكام إيران والعراق، وحارب الجميع، وضاق الناس الذين كانوا يعدونه المخلص من تصرفات جنوده من غارة وجباية، فبعض أعمال جلال الدين وجنوده من نهب واحتلال فاقت أعمال جنكيز خان في خراسان⁴⁹ وما وراء النهر⁵⁰. وكان البعض من أعمال جلال الدين بعيدا عن العقل ولو كانت شخصية إلا أنها تبدو أكثر سوءاً وذمماً لكونه زعيماً وملكاً، ومن جملتها إدمانه وحبه للشراب والنساء والتوسل للسحر والشعوذة، ولهذا قسا عليه ابن الأثير كثيراً، وحمله وحده تبعية الهزيمة.

ورغم هذا التحامل عليه إلا أنه لو أن السلطان جلال الدين أحسن التدبير وأقلع عن سفك الدماء والقسوة، وتجنب سوء السياسة وحب شرب الخمر لكان ربما وفق بما كان لديه من شجاعة، ومما زاد من الغموض حول هذه الشخصية الأساطير التي نسجت حوله فلا أحد كان يصدق أن جلال الدين قد قتل، وظل الناس في شك من حقيقة موته، إذ كانوا يظنون حياً وقد أشار إلى ذلك حيث ذكر في حوادث سنة 628هـ/1230م "وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم تقف له على حال"⁵¹.

والخلاصة أن جلال الدين كان سيء السيرة من وجهة نظر ابن الأثير، وكان أسداً ضرغاماً من مؤرخ سيرته النسوي، وكان شجاعاً وسياسياً من وجهة نظر بعض مؤرخي الكتب الفارسية والمستشرقين الذين بالغوا في امتداحه وتمجيد أعماله. وفي الأخير لاشك أن قيمة ما كتبه ابن الأثير في كتابه الكامل عن الغزو المغولي تنبع من أهمية المعلومات التي يحويها بين طياته، فالكتاب يحتوي معلومات كثيرة عن بدايات الغزو والأوضاع التي كان عليها العالم الإسلامي ومن يتحمل مسؤولية ما وقع والسهولة التي دك بها المغول قلاع ومدن البلاد الإسلامية، كما يظهر من خلال تناول ابن الأثير موضوع الغزو المغولي لبلاد الإسلام انسياقه كثيراً وراء مشاعره وحنقه على ما تعرض له المسلمون الأمر الذي ترك تأثيره واضحاً على ما كتب، فكانت كتاباته صادقة وموضوعية.

- الهوامش:

¹- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت 1987، ج 10، ص 399

²- السلطان الكبير جلال الدين مَكْشُورِي خُوارزم بن السلطان علاء الدين محمد بن تُكش الخوارزمي، دامت فترة حكمه اثنتي عشرة سنة، كان فارساً شجاعاً مهيباً، تملك البلاد و دانته له الأمم، وهابته التتار، و لولاه لداسوا الدنيا، الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الر سالة ، بيروت 1982، ط02، ج 22 ، ص ص 326-329

³- أبو نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله أحمد العباسي، ولد (571هـ/1175م)، كان ديناً، خيراً، متواضعاً نعم الخليفة محسناً لرعيته، رد مظالم كثيرة، دامت خلافته تسعة أشهر و نصف، توفي سنة (623هـ/1226م)، ابن العماد : شذرات من ذهب ،دار ابن كثير،بيروت 1986، ج 07 ،ص ص 192-193 زهير الكبي : موسوعة الخلفاء المسلمين،دار الفكر العربي ،بيروت، ط01 1994، ج 02، ص ص 219-220

⁴- الدولة الخوارزمية واحدة من الدول التي قامت في المشرق الإسلامي سنة 490هـ/1096م على يد محمد بن انوشكين الذي تولى الحكم في مدينة خوارزم

- من قبل السلاجقة فلعب خوارزم شاه ، و قد أقره السلطان السلجوقي سنجر عليها و توارث الحكم بعده أبنائه.و قد تعاظم نفوذ هذه الدولة بعد سقوط السلاجقة. ابن الأثير :الكامل في التاريخ ، ج 09، ص ص 10-11 ، ابن كثير: البداية و النهاية ، دار هجر للطباعة و النشر، مصر، 1998، ط1، ج16، ص161
- 5 - ابن الأثير :الكامل في التاريخ، ج 1، ص 11، (تقديم المحقق) .
- 6-ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص348.
- 7 - ابن كثير :البداية والنهاية، ج 17، ص110
- 8-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص353-356
- 9- ابن العماد :شذرات الذهب ، ج 07 ، ص 241
- 10 -حسن شمساني: عزالدين ابن الأثير الجزري دار الكتب العلمية، بيروت، ص52.
- 11- ابن خلكان :وفيات الاعيان، حققه عباس إحسان /دار صادر ،بيروت، د ت، ج 03 ، ص 348.
- 12 - مدينة عجيبة الحسن ، خربها المغول سنة 617هـ/1219م، و هي من اكبر مدن أصبهان ، والرّي مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها ، ومن أعيان ما ينسب إليها أبوبكر محمد بن زكريا الرازي صاحب الكتب المصنفة.ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 03، ص ص116- 120
- 13 - من اعظم مدن ما وراء النهر و أجلها ، كانت قاعدة ملك السامانية ، ينسب الى بخارى خلق كثير من أئمة المسلمين في فنون شتى ، منهم امام أهل الحديث إسماعيل البخاري ، ياقوت الحموي: المصدر نفسه ، ج 01، ص ص 353-355
- 14 - يقال لها سمران بالعربية ، بلد معروف مشهور، فتحها سعيد بن عثمان ، بها عدة مدن منها : كرمانية و دبوسية و أشر ، و قد قالوا ليس في الأرض مدينة أنزه و لأطيب من سمرقند ، ياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج 03، ص ص245- 250
- 15 - ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، ج 10، ص 407
- 16 -- بلدة مشهورة من اعظم بلاد أذربيجان تقع على مسافة سبعين ميلا جنوب تبريز ، و هي مدينة محصنة و ذات قلاع، عسكر فيها مروان بن محمد بن مروان ، و كانت دوابه و دواب أصحابه تتمرغ فيها فسميت مراغة .ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 05، ص 93
- 17 - أذربيجان : اقليم واسع ومن مشهور مدائنها تبريز وهي قصبتها و اكبر مدنها ، وهي مملكة عظيمة ، الغالب عليها الجبال ،وفيه قلاع كثيرة ، ياقوت : المصدر نفسه، ج 01، ص 128

- 18 - ابن الاثير : المصدر نفسه ، ج 10، ص 412
- 19 - أربل: بالكسر ثم السكون وباء موحدة مكسورة و لام ، و الريل ضرب من الشجر ، وتعد من أعمال الموصل ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 01، ص 137
- 20 - مظفر الدين كوكبري صاحب أربل ، كان من أدين الملوك و أجودهم و أكثرهم برا و معروفا ، تملك بلادا كثيرة ، ولى مملكة أربل بعد موت أبيه وله أربع عشرة سنة ، اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين. ابن العماد: شذرات الذهب ، ج 07 ، ص 243، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 22، ص ص 334-335
- 21 - مدينة بين أربل وبغداد معروفة، ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج 02، 459
- 22 - ابن الاثير : المصدر نفسه ، ج 10، ص 412
- 23 - قسبة مدن ديار ربيعة في الجزيرة ، وهي مدينة في مستوى من الأرض بقرها جبل ماردين، استولى عليها المغول سنة 658/1260م، ضمها الملك المظفر ابن الملك سعيد الغازي صاحب ماردين الى ملكه سنة 661/1263م . عز الدين بن محمد ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء بلاد الشام والجزيرة ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق 1991، ج 03، ق 01، ص 139،
- 24 - ابن الاثير: المصدر نفسه ، ج 10، ص 493
- 25 - مدينة عظيمة على شاطئ جيحون ، وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج، فعربت الى الجرجانية ، وكان يقال لمدينة خوارزم في القديم فيل ، ثم قيل لها المنصورة . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 02، ص 122
- 26 - معناه المحبوبة ، وهي أكبر مدينة في الجبال ، حصينة ، كثيرة الأهل منيعة واسعة الأنهار ، شتاءها مفرط البرد. ياقوت: معجم البلدان ، ج 05، ص ص 410-416
- 27 - ابن الاثير : المصدر نفسه ، ج 10، ص 413
- 28 - الاراضي الواقعة شمال البحر الاسود وبحر قزوين الى منابع نهر أرتيش ، عرفت أيضا بصحراء الغز في القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي، تعرضت لغزوات المغول سنة 618/1220م ، انسحبوا منها سنة 621/1223م بعد نهبها. محمد علي الأحمد : امبراطورية المغول، ص ص 145-146
- 29 - ابن الاثير : المصدر نفسه ، ج 10، ص 400
- 30 - ابن الاثير : المصدر نفسه ، ج 10، ص 399
- 31 - ابن الاثير : المصدر نفسه لكامل ، ج 10، ص 453

³² - الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق ، كان عالي الهمّة حازماً شجاعاً مهيباً فاضلاً جامعاً ، كان حنفي المذهب متعصباً لمذهبه ، محباً للادب ، كانت مملكته متسعة من حدود بلد حمص الى العريش.

ابن خلكان :المصدر السابق، ج 03 ، ص ص 494-496

³³ - الخطا أو القراخطائين مجموعة من القبائل التي نزحت من شمال الصين ، كونت دولة كبيرة كانت تقع بين مملكة الخوارزميين في الغرب و مساكن المغول في الشرق .قضى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه عليها سنة 607/1210م .سعاد هادي الطائي: القراخانيون (315-607هـ) دراسة في اصولهماتاريخية و علاقاتهم السياسية،دار صفحات ، دمشق 2016، ص ص 18-20

²⁸ -سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الاعيان ،دار الرسالة العالمية ، دمشق 2013، ج 22، ص 273

³⁵ - أبو الفدا :المختصر في اخبار البشر ،دار المعارف ،القاهرة، د ت ، ج 03، ص 169

³⁶ - ابن الكثير :البداية و النهاية ، ج 17، ص 132

³⁷ - أحمد بن علي المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، مطبعة دار الكتب مصر ، 1972، ج 01، ص 218

³⁸ - المؤرخ العراقي عباس العزاوي في كتابه " تاريخ العراق بين احتلالين" ص ،96و المؤرخ المصري حافظ حمدي في كتابه"الدولة الخوارزمية و المغول"ص50.

³⁹ - محمد صالح قزاز :الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية،مطبعة القضاء النجف، 1970، ص93

⁴⁰ - مدينة من بلاد الترك تكتب أيضا اطرار تقع على نهر سيحون تعتبر مفتاح إقليم ما وراء النهر.ياقوتالحموي :المصدر السابق ،ج 01، ص 218

⁴¹ - سعد بن محمد الغامدي :سقوط الدولة العباسية ، دار ابن حذيفة ، السعودية 1983، ص 168

⁴² - ابن الأثير :المصدر نفسه ، ج 10، ص 401

⁴³ - محمد بن احمد النسوي :سيرة جلال الدين منكبرتي ، ترجمة حافظ احمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1953، ص 384

⁴⁴ - الاشرف موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق ابن العادل ، كان فيه دين وخوف من الله ، وكان جواداً، سمحاً، لديه فضيلة، وكان ميالاً للمحدثين والحنابلة ، توفي سنة 635/1237م. الذهبي : سير اعلام النبلاء، ج 22، ص ص 122-127

- ⁴⁵ - ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ، ج 06 ، ص 245
- ⁴⁶ - محمد دبیر سیاقی: السلطان جلال الدين خوارزمشاه في ميزان التاريخ ، ترجمة احمد الخولي، المركز القومي للترجمة القاهرة، 2009، ص 173
- ⁴⁷ - ابن تغري بردى: المصدر السابق ، ج 06 ، ص 246
- ⁴⁸ - فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية بيروت ، 1980، ص 178.
- ⁴⁹ - بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق و آخر حدودها مما يلي الهند ، و تشمل على أمهات من البلاد منها نيسابور و هراة و مرو، فتحت هذه البلاد في عهد عثمان بن عفان سنة 31هـ.ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج 02، ص 350
- ⁵⁰ - اصطلاح العرب على تسمية الأقاليم الواقعة شمال نهر جيحون ببلدان ما وراء النهر و كان هذا النهر حد فاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية و الناطقة بالتركية من أشهر مدن ما وراء النهر سمرقند و بخارى ، يُنسب إليها عدد من العلماء . انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج 5 ، ص ص 45-47، لكي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، 1985، ط 02 ، ص 476.
- ⁵¹ - ابن الأثير: المصدر السابق ، ج 10، ص 496.